

الجزء العشرون

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ
إِنَّهُمْ أَفْسَاقٌ يَنْتَهَكُونَ (٥٦) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا هَا مِنْ
الْغَابِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (٥٨) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شرح المفردات

ينتفحون : أى ينزهون أنفسهم ويتباعدون عما نفعله ويزعمون أنه من
القاذورات ، قدّرنا : أى قضينا وحكّمنا ، الغابرين : أى الباقين فى العذاب .

المعنى الجملى

سبق أن بينّا أن الذين قسموا القرآن إلى أجزاءه الثلاثين لاحظوا العبء اللفظى
للحروف والكلمات والآيات ، ولم ينظروا إلى ارتباط المعانى بعضها ببعض ، ومن ثم
ترى هنا أن الجزء قد انتهى قبل تمام قصة لوط وبدئ الجزء العشرون بتمام هذه
القصة ، وقد بين فيها أن النصيح لم يُجِدْ شئنا وعقدوا العزم على استعمال القوة

في إخراجهم من بين ظهورانيهم ، ولم يكن لهم حجة على المعارضة إلا أن لوطا وقومه لا يريدون أن يشاركوهم فيما يفعلون تباعدا من الأرجاس ، وتلك مقالة قالوها على سبيل الاستهزاء بهم ، وقد نسوا أن هناك قوة أشد من قوتهم هي لهم بالمرصاد وأنها تمهلهم ولا تمهلهم ، فلما حان حينهم جاءهم العذاب من حيث لا يشعرون وأهلك الله القوم الظالمين ، ونصر الحق وأزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا .

الإيضاح

(فإكان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريبتكم) أى فلم يكن جوابهم للوط إذ نهاهم عما أمره الله بنبيهم عنه من إتيان الذكور إلا قيل بعضهم لبعض : أخرجوا لوطا وأهله من قريبتنا ، وقد عدوا سكناه بينهم منة ومكرمة عليه إذ قالوا : من قريبتكم .

ثم عللوا هذا الإخراج بقولهم استهزاء بهم :

(إنهم أناس يتطهرون) أى إنهم يتخرجون من فعل ما يفعلون ، ومن إقراركم على صانعكم ، فأخرجوهم من بين أظهركم ، فإنهم لا يصالحون لجواركم في بلدكم .

ولما وصلوا إلى هذا الحد من قبح الأفعال والأقوال دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ، وإلى هذا أشار بقوله :

(فأنجيناها وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين) أى فأهلكناهم وأنجينا لوطا وأهله إلا امرأته جعلناها بتقديرنا وحكمتنا من الباقين في العذاب ، لأنها كانت على طريقتهم راضية بقبیح أفعالهم وكانت ترشد قومها إلى ضيفان لوط ليأتوا إليهم ، لأنها كانت تفعل الفواحش تكربة لنبي الله صلى الله عليه وسلم ، لا كرامة لها .

ثم بين ما أهلكوا به فقال :

(وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين) أى وأمطرنا عليهم مطرا غير ماعهد

من نوعه ، فقد كان حجارة من سجيل ، فبئس ذلك المطر مطر الذين أنذروهم الله
عقابه على معصيتهم إياه ، وخوفهم بأسه بإرسال الرسول إليهم .

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ خَبِيرٌ أَمَّا
يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ
مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَمْ
مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا
أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ
السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢)
أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ
رَحْمَتِهِ أَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ
يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ قُلُ هَاتُوا
بُرْهَانَكُمْ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) .

شرح المفردات

العباد المصطفون : هم الأنبياء عليهم السلام ، الحدائق : البساتين واحدها
حديقة ، والبهجة : الحسن والرونق ، يعدلون : من العدول وهو الانحراف ، قرارا :
أى مستقرا ، الخلال : واحدها خلل وهو الوسط ، رواسى : أى ثوابت أى جبالا
ثوابت ، الحاجز : الفاصل بين الشئين ، والمضطر : الذى أحوجته الشدة والجأته .

الضراعة إلى الله ، ويكشف : أى يرفع ، خلفاء : من الخلافة وهى الملك والتسلط ،
يهديكم : أى يرشدكم ، بين يدي رحمة : أى أمام المطر .

المعنى الجملى

بعد أن قص سبحانه على رسوله قصص أولئك الأنبياء السالفين وذكر أخبارهم
الدالة على كمال قدرته وعظيم شأنه ، وعلى ما خصهم به من المعجزات الباهرة الناطقة
بجلال أقدارهم وضدق أخبارهم ، وفيها بيان صحة الإسلام والتوحيد وبطلان الشرك
والكفر ، وأن من اقتدى بهم فقد اهتدى ، ومن أعرض عنهم فقد تردى فى مهاوى
الردى ، ثم شرح صدره عليه السلام بما فى تضاعيف تلك القصص من العلوم الإلهية
والعارف الربانية الفائضة من عالم القدس مقررًا بذلك قوله : « وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ
مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ » - أردف هذا بأمره عليه السلام بأن يحمده تعالى على تلك
النعم ويسلم على الأنبياء كافة عرفانا لفضلهم وأداء لحق تقدمهم واجتهادهم فى الدين
وتبليغ رسالات ربهم على أكمل الوجوه وأمثل السبل ، ثم ذكر الأدلة على تفرد
بالتخلق والتقدير ووجوب عبادته وحده ، وأنه لا ينبغي عبادة شئ سواه من
الأصنام والأوثان .

الإيضاح

(قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى) أمر الله رسوله أن يحمده شكرًا
له على نعمه التى لا تعد ولا تحصى ، وأن يسلم على عباده الذين اصطفاهم لرسالته ،
وهم أنبياؤه الكرام ورسله الأخيار .

ومن تلك النعم النجاة والنصر والتأييد لأوليائه ، وحلول الخزي والفتك
والقهر بأعدائه .

ونحو الآية قوله : « سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى
الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

وفي هذا تعليم حسن ، وأدب جميل ، وبعث على التيمن بالذكرين والتبرك بهما والاستظهار بمكانهما على قبول ما يلقي إلى السامعين ، والإصغاء إليه ، وإزاله من قلوبهم المنزلة التي يبيعها المستمع ، ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابرا عن كابر : هذا الأدب ، فحمدوا الله وصلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمام كل علم مفاد ، وقبل كل عظة ، وفي مفتتح كل خطبة ، وتبعهم المترسلون فأجروا عليه أوائل كتبهم في الفتوح والتهاني وغير ذلك من الحوادث التي لها شأن .

ثم شرع يوبخ المشركين ويتكلم بهم وينبهم إلى ضلالهم وجهلهم ، إذ آتروا عبادة الأصنام على عبادة الواحد القهار فقال :

(آله خير أم ما يشركون ؟) أى الله الذى ذكرت لكم شئونه العظيمة خير أم الذى تشركون به من الأصنام ، وفي ذلك ما لا يخفى من تسفيه آرائهم وتقييم معتقداتهم وإلزامهم الحجة ، إذ من البين أنه ليس فيما أشركوه به سبحانه شائبة خير حتى يوازن بينها وبين ما هو محض الخير ، فهو من وادى ما حكاك سيبويه : تقول العرب : السعادة أحب إليك أم الشقاء ؟ وكما قال حسان يهجو أبا سفيان بن حرب ويمدح النبي صلى الله عليه وسلم :

أتهجوه وأست له بكفء فشر كما لخير كما الفـداء

وجاء في بعض الآثار « إن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية قال : بل الله خير وأبقى ، وأجل وأكرم » .

ثم انتقل من التوبيخ تعريضا إلى التبكيت تصریحا فقال :

(أم من خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حقائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها) أى أعباد ما تعبدون أيها المشركون من أوثانكم التي لا تضر ولا تنفع خير ، أم عبادة من خلق السموات على ارتفاعها وصفاتها وجعل فيها كواكب نيرة ونجومها زاهرة ، وأفلاكا دائرة ؛ وخلق الأرض وجعل فيها جبالا وأنهارا وسهولا وأوعارا ، وفيافي وقفارا ، وزروعا وأشجارا ، وحيوانات مختلفة

الأصناف والأشكال والألوان ، وأنزل لكم من السماء مطرا جعله رزقا للعباد فأثبت به بساكنين مونة تسر الناظرين ؟ ولولاه ما نبت الشجر ولا ظهر الثمر .
 ونحو الآية قوله : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » وقوله : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » .
 ثم زاد في التوبيخ فنفى الألوهية عما يشركون بعد تبكيتهم على نفي الخيرية عنها فقال :

(أإله مع الله ؟) أى إله غيره يقولون به ويجعلونه شريكاً له في العبادة ؟ مع تفرد جل شأنه بالخلق والتكوين كما قال : « وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ » .
 ثم انتقل من تبكيتهم إلى بيان سوء حالهم فقال :

(بل هم قوم يعدلون) أى بل هؤلاء المشركون قوم دأبهم العدول عن طريق الحق والانحراف عن جادة الاستقامة في جميع شؤونهم ، ومن ثم يفعلون ما يفعلون من العدول عن الحق الواضح وهو التوحيد ويكفون على الضلال المبين وهو الإشراك .

وفي معنى الآية قوله : « أَمْ مَنْ هُوَ قَائِلُ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَمَقَامًا يُحَذِّرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ » وقوله : « أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ، أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » وقوله : « وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلُوبُهُمْ » .

ثم أعاد التوبيخ بوجه آخر فقال :

(أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خَلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا) أى عبادة ما تشركون أيها الناس بربكم مع أنه لا يضر ولا ينفع خير ، أَمْ عبادة الذي جعل الأرض مستقراً للإنسان والدواب ، وجعل في أوسطها أنهاراً تتنفعون منها في شربكم وسقى أنعامكم ومزارعكم ، وجعل فيها ثوابت الجبال حتى لا تميد بكم ،

وحتى تنتفعوا بما فيها من المعادن المختلفة ، وقد أنزل الماء على شواهدهما وجعل بين المياه العذبة والملحة حاجزا يمنعهما من الاختلاط حتى لا يفسد هذا بذلك ، والحكمة تقضي ببقاء كل منهما على حاله ، فالعذبة : لسقي الناس والحيوان والنبات والثمار ، والملحة : تكون مصادر للأمطار التي تجري منها ، وهي وسيلة لإصلاح الهواء .

(أإله مع الله ؟) في إبداع هذه الكائنات وإيجاد هذه الموجودات .

(بل أكثرهم لا يعلمون) أى بل أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون قدر عظمة الله وما عليهم من ضرر في إشراكهم غيره به ، وما لهم من نفع في إفرادهم إياه بالألوهة وإخلاصهم العبادة له وبراءتهم من كل معبود سواه .

ثم زادهم توبيخا من وجه ثالث فقال :

(أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض) أى أم ما تشركون بالله خير أم الذى يجيب المكروب الذى أحوججه المرض أو الفقر أو النازلة من نوازل الدهر إلى اللجأ والتضرع إليه إذا دعاه وقت اضطرابه ، ويرفع عن الإنسان ما يسوءه من فقر أو مرض ، ويجعلكم خلفاء من قبلكم من الأمم في الأرض فيورثكم إياها بالسكنى والتصرف فيها ؟ .

وجاء رجل إلى مالك بن دينار فقال : أسألك بالله أن تدعولى فأنا مضطر ، قال : إذا فاسأله فإنه يجيب المضطر إذا دعاه ، وقال الشاعر :

وإني لأدعو الله والأمر ضيق على فما ينفك أن يتفرجاً

ورب أخ سددت عليه وجوهه أصاب لها لما دعا الله فخرجها

وعن أبي بكره قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعاء المضطر : « اللهم رحمتك أرجو ، فلا تكلى إلى نفسى طرفة عين ، وأصلح لى شأنى كله ، لا إله إلا أنت » وجاء فى الخبر : « ثلاث دعوات مستجابات لاشك فيهن ، دعوة المظلوم ، ودعوة المسافر ، ودعوة الوالد على ولده » .

وفي صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ لما وجهه إلى أرض اليمن :
« واتق دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب » .

(أإله مع الله ؟) الذى هذه شئونه وتلك نعمه .

ثم بين أن من طبيعة الإنسان ألا يتذكر نعم الله عليه إلا قليلا ، وإلى ذلك أشار بقوله :

(قليلا ما تذكرون) أى قليلا ما تتذكرون نعم الله عليكم وأياديه عندكم ، ومن ثم أشركتم به غيره فى العبادة .

ثم زادهم تأنيبا وتهكما من ناحية أخرى فقال :

(أم من يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته)
أى أم ما تشركون بالله خير ، أم من يرشدكم فى ظلمات البر والبحر إذا أظلمت عليكم
السبل فضلتم الطريق - بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية كما قال : « وَعَلَامَاتِ
وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ » وقال : « وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا
فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ » ومن يرسل الرياح أمام الغيث الذى يحيى موات الأرض ،
ولما اتضحتم الأدلة ولم يبق لأحد فى ذلك عذر ولا علة قال :

(أإله مع الله ؟) فعل هذا ؟

ثم أكد هذا النفي وقرره بقوله :

(تعالى الله عما يشركون) أى تنزه ربنا المنفرد بالألوهية ، ومن له صفات الكمال
والجلال ، ومن تخضع له جميع المخلوقات ، وتذل لقمه وجبروته - عن شرككم الذى
تشركونه به وعبادتكم معه ما تعبدون .

ثم أضاف إلى ذلك برهانا آخر لعلمهم يرتدعون عن غيهم فقال :

(أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض) أى أم ما تشركون
خير أم الذى ينشئ الخلق بادئ بدء وينتدعه من غير أصل سلف ، ثم يفنيه إذا

شاء ، ثم يعيده إذا أراد كهينته قبل أن يفنيه ، وهو الذى يرزقكم من السماء والأرض
 فينزل من الأولى غيثا وينبت من الثانية نباتا لأقواتكم وأقوات أنعامكم .
 وهم وإن كانوا ينكرون الإعادة والبعث لم يلتفت إلى ذلك الإنكار اظهور أدلته
 فلم يبق لهم عذر فيه .

وبعد أن وضح الدليل على نفي الشريك بكتهم وقال :

(أإله مع الله ؟) يفعل هذا حتى يجعل شريكاً له .

وبعد أن ذكر البرهان تلوا البرهان وأوضح الحق حتى صار كفلق الصبح زاد
 فى التهم بهم والإنكار عليهم والتسفيه لعقولهم ، فأمر رسوله أن يطلب منهم البرهان
 على صدق ما يدعون . فقال :

(قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) أى قل لهم أيها الرسول : هاتوا الدليل
 على وجود ما تزعمون من الشركاء إن كان ما تقولونه حقاً وصدقاً .

قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ، وَمَا يَشْعُرُونَ
 أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلِ إِذَا دَارَكَ عَنْهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلٌ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا
 بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (٦٦) .

شرح المفردات

أَيَّانَ : أى متى ، يبعثون : أى يقومون من القبور للحساب والجزاء ، إِذَا دَارَكَ
 أى تدارك وتتابع والمراد التتابع فى الاضمحلال والفناء ، فى شك : أى فى حيرة
 عظيمة ، عمون : واحد هم عم وهو أعمى القلب والبصيرة .

المعنى الجملى

بعد أن أثبت تفرد بالألوهية ، لاختصاصه بالقدرة التامة والرحمة العامة - أعقب
 هذا بذكر لوازمها وهو اختصاصه بعلم الغيب ، تكميلاً لما قبله وتمهيداً لما بعده من أمر البعث .

(قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله) يقول سبحانه أمرا رسوله صلى الله عليه وسلم أن يعلم جميع خلقه أنه لا يعلم الغيب أحد من أهل السموات والأرض ، بل الله وحده هو الذى يعلم ذلك كما قال : « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يُعْلِمُهَا إِلَّا هُوَ » الآية . وقال : « إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ » الآية . والمراد بالغيب الشئون التى تتعلق بأمور الآخرة وأحوالها ، وشئون الدنيا التى لاتقع تحت حسنا وليست فى مقدورنا .

وعن مسروق عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : من زعم أن النبى صلى الله عليه وسلم يعلم ما يكون فى غد فقد أعظم القرية على الله ، لأن الله يقول : « قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله » .

ثم ذكر بعض ذلك الغيب فقال :

(وما يشعرون أيان يبعثون) أى وما يدرى من فى السموات والأرض من خلقه متى هم مبعوثون من قبورهم لقيام الساعة كما قال : « ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةً » أى ثقل عليهما على أهل السموات والأرض فلا يشعرون بها ، بل تأتيتهم فجأة .

ثم أكد جهلهم بهذا اليوم بقوله :

(بل ادّارك علمهم فى الآخرة) أى بل انتهى علمهم وعجزهم عن معرفة وقتها فلم يكن لهم علم بشيء مما سيكون فيها قطعا مع توافر أسباب العلم ، وليس المراد أنه كان لهم علم بوقتها على الحقيقة فاتتني شيئا فشيئا ، بل المراد أن أسباب العلم ومبادئه من الدلائل العقلية والنقلية ضعفت فى اعتبارهم شيئا فشيئا كما تأملوا فيها حتى لم يعد لها قيمة وكأن لم تكن .

ثم انتقل من وصفهم بالجهل بميقاتها إلى الخيرة فى الآخرة نفسها ، أتكون أو لاتكون ؟ فقال :

(بل هم فى شك منها) أى بل هم فى حيرة عظيمة من تحققها ووجودها ،
أكائنة هى أم غير كائنة ، كمن يحار فى الأمر لا يجد عليه دليلا ، فضلا عن تصديق
ما سيحدث فيها من شئون أخبرت عنها الكتب السماوية كالشواهد والعقاب والنعيم
والعذاب والأهوال التى لا يدرك كنهها العقل .

ثم ارتقى من وصفهم بالشك فى أمرها إلى وصفهم بالعمى واختلال البصيرة بحيث
لا يدركون الدلائل التى تدل على أنها كائنة لا محالة فقال :

(بل هم منها عمون) أى بل هم فى عمية وجهل عظيم من أمرها ، وعن كل
ما يوصلهم إلى الحق فى شأنها ، والنظر فى دلائلها .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧)
لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٦٨)
قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩)
وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) وَيَقُولُونَ مَتَى
هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ
بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ
وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمِمَّا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ
مُبِينٍ (٧٥) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه فيما سلف جهلهم بالآخرة وعصاهم عنها - أردف ذلك ببيان
ذلك وإيضاحه بأنهم ينكرون الإخراج من القبور بعد أن صاروا ترابا ، وأنهم قالوا

تلك مقالة سمعناها من قبل ، وما هي إلا أسطورة من أساطير الأولين وخرافاتهم ؛ ثم أمر الله رسوله أن يرشدهم إلى صدق هذا السير في الأرض حتى يروا عاقبة المجرمين بسبب تكذيبهم للرسل فيما دعواهم إليه من الإيمان بالله واليوم الآخر ، ثم صبر سبحانه رسوله على ما يناله من أذى المشركين ، ووعد بالنعص عليهم ، ثم ذكر أنهم مكذبون بالساعة وغيرها من العذاب والجزاء الموعود ، وأنهم يسألون عن ذلك سخرية واستهزاء ، وأجابهم بأن العذاب سينزل بهم قريباً ، ثم ذكر فضله على عباده بأنه لا يعجل لهم العذاب مع استحقاقهم إياه لا يشكرونه على ذلك ، ثم بين أنه تعالى عليم بالسر والتجوى ، وأنه مطلع على ما تكنه القلوب ، وأنه ما من شيء مما خفى قاله عليم به وهو مثبت عنده في كتاب مبين .

الإيضاح

(وقال الذين كفروا أنذا كنا تراباً وآبائنا أننا نخرجون) أى وقال الكافرون بالله المكذبون لرسوله ، أننا نخرجون من قبورنا أحياء كهياتنا من بعد مماتنا وبعد أن بلىنا وكنا فيها تراباً ؟ .

وهذا منهم استبعاد لإعادة الأجسام بعد صيرورتها عظماً ورفاتاً .

ثم ذكروا شبهتهم على استبعاده في زعمهم فقال :

(لقد وعدنا هذا نحن وآبائنا من قبل) أى إنا ما زلنا نسمع بهذا نحن وآبائنا ولا نرى تحقق ذلك ولا وقوعه .

ثم أكدوا هذا الاستبعاد بقولهم :

(إن هذا إلا أساطير الأولين) أى ما هذا الوعد إلا أسطورة مما سطره الأولون من الأكاذيب في كتبهم من غير أن يكون لهم بيئة على إمكان تحققه ووجوده .

ثم أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يرشدهم إلى وجه الصواب مع التهديد والوعيد فقال :

(قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين) أى قل لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به من الأنباء من عند ربك : سيروا فى الأرض فانظروا إلى ديار من كان قبلكم من المكذبين ، كيف هى ؟ ألم يخربها الله ويهلك أهلها بتكذيبهم وسلمهم وردهم عليهم نصائحهم ، نخلت منهم الديار ، وعفت منها الرسوم والآثار ، وكان ذلك عاقبة إجرامهم ، وتلك سنة الله فى كل من سلك سبيلهم فى تكذيب رسوله ، وسيفعل ذلك بكم إن أنتم لم تبادروا إلى الإنابة من كفركم وتكذيبكم رسوله .
ثم سئل رسوله صلى الله عليه وسلم عما يناله من عاهم عن السبيل الذى هدى إليه الدليل فقال :

(ولا تحزن عليهم ولا تكن فى ضيق مما يمكرون) أى ولا تحزن على إدبار هؤلاء المشركين عنك وتكذيبهم لك ، ولا يضق صدرك من مكرهم ، فإن الله ناصر لك عليهم ومظهر دينك على من خالفه فى المشارق والمغارب .
ثم أشار إلى أنهم لم يقصروا إنكارهم على الساعة ، بل كان إنكارهم لغيرها من عذاب الله أشد بقوله :

(ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) أى ويقول مشركو قريش المكذبون بما أتيتهم به من عند ربك : متى يكون هذا العذاب الذى تعدنا به ؟ إن كنتم صادقين فيما تدعون .

ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحییهم فقال :

(قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون) أى عسى أن يلاحقكم ويصل إليكم بعض ما تستعجلون حلوله من العذاب ، والمراد به ما حل بهم يوم بدر من النكال والوبال .

قال صاحب الكشف : عسى ولعل وسوف ، فى وعد الملوك ووعدهم تدل على صدق الأمر وجده ، وما لاجال لاشك بعده ، وإنما يعنون بذلك إظهار وقارهم ،

وأنهم لا يعجلون بالانتقام لإدلالهم بقهرهم وغلبتهم وتوقعهم أن عدوهم لا يفوتهم ،
وأن الرزمة إلى الأغراض كافية من جهةهم ، وعلى ذلك جرى وعد الله ووعداه .
ثم بين سبحانه السبب في ترك تعجيل العذاب فقال :

(وإن ربك لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون) أى وإن ربك
لهو المنعم المتفضل على الناس جميعا بتركه المعالجة بالعقوبة على المعصية والكفر ،
ولكن أكثرهم لا يعرفون حق فضله عليهم . فلا يشكره إلا القليل منهم .
ثم أبان سبحانه أنه مطلع على مافى قلوبهم فقال :

(وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون) يقال كذبت الشئ وأكفنته :
إذا سترته وأخفيت ، أى إن ربك يعلم الغيائى والسرائر كما يعلم الظواهر كما قال :
« سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ » وقال « وَيَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى » .
وقصارى ذلك — إنه يعلم ما يخفون من عداوة الرسول ومكائدهم له وما يعلنون
وهو محصيا عليهم ومجازيهم بذلك .

ثم ذكر أن كل ما يحصل فى الوجود فهو محفوظ فى اللوح المحفوظ فقال :
(وما من غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين) أى وما من أمر مكتوم
وسر خفى يغيب عن الناظرين فى السماء أو فى الأرض إلا وهو فى أم الكتاب الذى
أثبت ربنا فيه كل ما هو كائن من ابتداء الخلق إلى يوم القيامة ، وهو بين لمن نظر
إليه وقرأ ما فيه مما أثبت ربنا جلّت قدرته .
ونحوه : « أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، إِنَّ ذَلِكَ فِى كِتَابٍ ،
إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ » .

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقْصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِى هُمْ فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى

يَذَرُهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَا أَنْتَ بِهَادِيَ الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٨١) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما يتعلق بالنشأة الأولى وأنه خلق الإنسان من صلصال من حمأ مسنون ، وما يتصل بالبعث والنشور وأقام على ذلك الدليل يتلوه الدليل بما لم يبق بعده مستزاد لمستزيد - أردف ذلك بالكلام فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأقام الأدلة على صحتها وصدق دعواه فيما يدعى ، وكان من أعظم ذلك القرآن الكريم ، لاجرم بين الله تعالى إعجازه من وجوه :

(١) إن ما فيه من القصص موافق لما فى التوراة والإنجيل مع أنه صلى الله عليه وسلم كان أمياً ولم يخالط أحداً من العلماء للاستفادة والتعلم ، فلا يكون ذلك إذا إلا من وحى إلهى من لدن حكيم خبير .

(٢) إن ما فيه من دلائل عقلية على التوحيد والبعث والنبوة والتشريع العادل المطابق لحاجة البشر فى دنياهم وآخرتهم - لا يوجد له نظير فى كتاب آخر ، فلا بد أن يكون ذلك من عند الله .

(٣) إنه قد بلغ الغاية فى الفصاحة والبلاغة حتى لم يستطع أحد أن يتصدى لمعارضته مع حرصهم عليها أشد الحرص ، فدل ذلك على أنه خارج عن قوى البشر وأنه من الملأ الأعلى ومن لدن خالق القوى والقدر .

ثم ذكر بعد ذلك أنه جاء حكماً على بنى إسرائيل فيما اختلفوا فيه ، فأبان لهم الحق فى هذا باختلافهم فى أمر المسيح؛ فمن قائل هو الله ، ومن قائل هو ابن الله ،

ومن قائل إنه ثالث ثلاثة ، وقوم يقولون إنه كاذب في دعواه النبوة ، كما نسبوا مريم إلى ماهي منزهة عنه ، وقالوا إن النبي المبشر به في التوراة هو يوشع عليه السلام أو هونبي آخر يأتي آخر الدهر ، إلى نحو ذلك مما اختلفوا فيه .
وأنه لا يحكم إلا بالعدل فقلوه الحق وقضاؤه الفصل .

ثم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتوكل عليه فإنه حافظه وناصره ، وأن يعرض عن أولئك الذين لا يستمعون لدعوته ، لأنهم صم بكم لا يعقلون ، والذكرى لا تنفع إلا من له قلب يعي ، وآذان تسمع دعوة الداعي إلى الحق فتستجيب لها .

الإيضاح

(إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون) أي إن هذا القرآن الذي أنزلته إليك أيها الرسول يقص على بني إسرائيل الحق في كثير مما اختلفوا فيه ، وكان عليهم لو أنصفوا أن يتبعوه ، لكنهم لم يفعلوا وكابروا مع وضوح الحق وظهور دليله كما تفعلون أنتم أيها المشركون .

ثم وصف القرآن بقوله :

(وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين) أي وإنه لهاد للمؤمنين إلى سبيل الرشاد ، ورحمة

للمن صدق به وعمل بما فيه .

وبعد أن ذكر فضله وشرفه أتبعه دليل عدله فقال :

(إن ربك يقضى بينهم بحكمه وهو العزيز العليم) أي إن ربك يقضى بين

المختلفين من بني إسرائيل بحكمه العادل ، فينتقم من المبطل منهم ويجازي الحسن بما يستحق من الجزاء ، وهو العزيز الذي لا يرد حكمه وقضاؤه ، العليم بأفعال العباد وأقوالهم ، فقضاؤه موافق لواسع علمه .

وبعد أن أثبت لنفسه العلم والحكمة والجبروت والقدرة أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتوكل عليه وحده فقال :

(فتوكل على الله) أى ففوض إلى الله جميع أمورك وثق به فيها ، فإنه كافيك كل ما أهمك ، وناصرك على أعدائك ، حتى يبلغ الكتاب أجله . ثم علل هذا بقوله :
(إنك على الحق المبين) أى أنت على الحق المبين وإن خالفك فيه من خالفك ممن كتب عليه الشقاء : « إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ » .

ثم أياسه من إيمان قومه وأنه لا أمل فى استجابتهم لدعوته فقال :
(إنك لا تسمع الموقى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين) أى إنك لا تقدر أن تفهم الحق من طبع الله على قلوبهم فأماها ، ولا أن تسمعه من أصمهم عن سماعه ولا سيما أنهم مع ذلك معرضون عن الداعى مولون على أدبارهم ، وإنما شبههم بالموقى لعدم تأثرهم بما يتلى عليهم ، وشبههم بالصم البكم ليبين أنه لا أمل فى استجابتهم للدعوة ، لأن الأصم الأبكم لا يسمع الداعى بحال .

وظاهر نفي سماع الموقى العموم ، فلا يخص منه إلا ماورد بدليل كما ثبت فى الصحيح «أنه صلى الله عليه وسلم خاطب القتلى فى قليب (بئر) بدر فقيل له: يارسول الله إنما تكلم أجسادا لا أرواح لها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» . أخرجه مسلم .

وكما ثبت أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين له إذا انصرفوا عنه ، وما ورد من أن الميت يسمع خفق نعال المشيعين له إذا انصرفوا .

وقصارى ما سلف — إنه تعالى أمره بالتوكل عليه والإعراض عما سواه ، لأنه على الحق المبين ومن سواه على الباطل ، ولأنه تعالى مؤيده وناصره ، ولأنه لا مطمع فى مشايعة المشركين ومعاصدتهم ، لأنهم كالموقى وكالصم البكم ، فلا أمل فى استجابتهم للدعوة ، ولا فى قبولهم للحق .

ثم أكد ما سلف وقطع أطماعه فى إيمانهم على أنهم وجه فقال :

(وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم) أى أنت أيها الرسول لا تستطيع أن تصرف العمى عن ضلالتهم وتهديهم إلى الطريق السوى ، والمراد أنك لا تهدي من أعماه الله عن الهدى والرشاد فجعل على أبصارهم غشاوة تمنعهم عن النظر فيما جثت به نظرا يوصلهم إلى معرفة الحق وسلوك سبيله .

ثم زاد ذلك توكيدا فقال :

(إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) أى إنما يستجيب لك من هو نافذ البصيرة خاضع لربه متبتل إليه بحجب لدعوة رساله .

والخلاصة — إنك لا تقدر أن تفهم الحق وتسمعه إلا من يصدقون بأدلتنا وحججنا ، فإنهم هم الذين يسمعون منك ما تقول ويتدبرونه ويعملون به ، إذ هم يتقادون الحق في كل حين .

وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢) وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (٨٥) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنَا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِن فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦) وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَخْرُجُ مِنَ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧) وَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨٨)

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مَنْ فَرَعُوا يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) وَمَنْ
جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تَجْزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ (٩٠)

شرح المفردات

وقع : حدث وحصل ، والمراد من القول : ما دل من الآيات على مجيء الساعة ،
تكلّمهم : أى تنبّئهم وتخبرهم ، نحشر : أى نجعل ، فوجا : أى جماعة من الرؤساء ،
يوزعون : أى يجبس أولهم على آخرهم حتى يتلاحقوا ويحتمعوا فى موقف التوبيخ
والمنافسة ، ولم تحيطوا بها علما : أى لم تدركوا حقيقة كتبها ، ألم يروا : أى ألم يعلموا ،
ليسكنوا فيه أى ليستريحوا فيه ويهدوا ، مبصرا : أى ليبصروا بما فيه من الإضاءة
طرق التقلب فى أمور معاشهم ، الصور : البوق ، داخرين : أى أذلاء صاغرين ،
جامدة : أى ثابتة فى أماكنها ، أتن : أى أحكم ، يقال رجل تقن (بكسر التاء)
أى حاذق بالأشياء ، الحسنه : الإيمان وعمل الصالحات ، والسيئة : الإشرار بالله
والمعاصى ، كبت : أى ألقيت منكوسة

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما يدل على كمال علمه وقدرته ، وأمان بمؤذ إمكان
البعث والحشر والنشر ، ثم فصل القول فى إعجاز القرآن ، ونبه بذلك إلى إثبات نبوة
محمد صلى الله عليه وسلم - أردف ذلك بذكر مقدمات القيامة وما يحدث من الأحوال
حين قيامها ، فذكر خروج دابة من الأرض تكلم الناس أنهم كانوا لا يؤمنون بآيات ربهم
وأنه حينئذ ينفخ فى الصور فيفزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ،
وأن الجبال تجري وتمرمر السحاب ، ثم بين أحوال المكلفين بعد ذلك وجمالهم

قسمين : مطيعين يعملون الحسنات فيثابون عليها بما هو خير منها ويؤمنون الفزع والخلوف ساعتئذ ، وعاصين يَكُونُ في النار على وجوههم ويقال لهم حينئذ هذا جزاء ما كنتم تعملون .

الإيضاح

(وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) يخبر سبحانه بأنه حين فساد الناس وتركهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق قرب محيى الساعة - يخرج الله دابة من الأرض تحدث الناس بأنهم كانوا لا يوقنون بآيات الله الدالة على محيى الساعة ومقدماتها .

والقصود من هذا التحديث : التشنيع عليهم بهذه المقالة ، وفي التعبير بكلمة (الناس) الإشارة إلى كثرتهم وأنهم جم غفير منهم .

وما جاء في وصف الدابة والمبالغة في طولها وعرضها وزمان خروجها ومكانه - مما لا يركن إليه ، فإن أمور الغيب لا يجب التصديق بها إلا إذا ثبتت بالدليل القاطع عن الرسول المعصوم .

ثم بين سبحانه حال المكذبين حين محيى الساعة بعد بيان بعض مبادئها وأشراتها فقال :

(ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون ، حتى إذا جاءوا قال أ كذبت بآياتي ولم تحيطوا بها علما أم ماذا كنتم تعملون ؟) أى ويوم تجتمع من كل أهل قرن جماعة كثيرة ممن كذبوا بآياتنا ودلائلنا ولجس أولهم على آخرهم ليجمعوا في موقف التوبيخ والإهانة ، حتى إذا جاءوا ووقفوا بين يدي الله في مقام السؤال والجواب ، ومناقشة الحساب ، قال لهم ربهم مؤثبا وموئخا لهم على تكذيبهم أ كذبت بآياتي الناطقة بلفظ يومكم هذا بآدى الرأى غير ناظرين فيها نظرا يوصلكم إلى العلم بحقيقتها ، أم ماذا كنتم تعملون فيها من تصديق وتكذيب ؟

(ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون) أى وحل بأولئك المكذبين بآيات الله -- السخط والغضب بتكذيبهم بها ، فهم لا ينطقون بحجة يدفعون بها عن أنفسهم عظيم ما حل بهم من العذاب الأليم .
ونحو الآية قوله : « هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ، وَلَا يُؤْذَنَ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ » .
وبعد أن خوفهم من أهوال يوم القيامة ذكر الدليل على التوحيد والحشر والنبوة فقال :

(ألم يروا أننا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا) أى ألم يرو هؤلاء المكذبون بآياتنا تضريغنا الليل والنهار ومخافتنا بينهم يجعل ذاك سكنا لهم يسكنون فيه ، ويهدمون راحة لأبدانهم من تعب التصرف والتقلب نهارا ، وجعل هذا مضيقا يصرون فيه الأشياء ويعابنونها ، فيتقلبون فيه لمعايشهم -- فيتفكرون فى ذلك ويتدبرون ويعلمون أن مصرف ذلك كذلك ، هو الإله الذى لا يعجزه شيء ولا يتعذر عليه إماتة الأحياء ، وإحياء الأموات بعد الممات .

وفى ذلك أيضا دليل على النبوة ، لأنه كما يقلب الليل والنهار لمنافع المكلفين فى بعثة الأنبياء منافع عظيمة للناس فى دنياهم ودينهم ، فما المانع إذا من بعثهم إليهم ؟ بل الحاجة إلى ذلك ملّة .

(إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) أى إن فيما ذكر لدلالة على قدرته على البعث بعد الموت ، وعلى توحيده لمن آمن به وصدق برسله ، فإن من تأمل فى تعاقبهما واختلافهما على وجوه بديعة مبنية على حكم تحار فى فهمها العقول ، ولا يحيط بعلمها إلا الله ، وشاهد فى الآفاق تبدل ظلمة الليل الخالصة المشابهة للموت ، بضياء النهار المضاهى للحياة ، وغاين فى نفسه تبدل النوم الذى هو أخو الموت بالانتباه الذى هو مثل الحياة -- قضى بأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور ، وجزم بأن الله جعل هذا دليلا على تحققه ، وأن الآيات الناطقة به حق وأنها من جند الله .

: وبعد أن ذكر الحشر الخاص وأقام الدليل عليه — ذكر الحشر العام فقال :
 (« وَيَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ »)
 أى واذكر أيها الرسول لهم هول يوم النفخ في الصور ، إذ يفزع من في السموات
 ومن في الأرض ، لما يعتريهم من الرعب حين البعث والنشور ، بمشاهدة الأحوال
 المخارقة للعادة في الأنفس والآفاق ، إلا من ثبت الله قلبه .

ويرى أكثر أهل العلم أن هناك نفختين ، نفخة الفزع المذكورة في هذه الآية
 وهى نفخة الصعق المذكورة في قوله تعالى : « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي
 السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ » لأن كلا الأمرين الفزع والخوف ، والصعق وهو
 الموت يحصلان بها ، ونفخة البعث المذكورة في قوله تعالى : « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ
 فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ » .

(وكل أتوه داخرين) أى وكل هؤلاء الفرعين المبعوثين ، حين النفخة
 تحضرون الموقف بين يدي رب العزة للسؤال والجواب ، والمناقشة والحساب ، أذلاء
 صاغرين ، لا يتخلف أحد عن أمره كما قال : « يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ » .
 وقال : « ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ » وقال :
 « يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ » .

ولما ذكر دخولهم أتبعه بدخول ما هو أعظم منهم فقال :

(« وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ») أى وترى الجبال كأنها
 ثابتة باقية على ما كانت عليه وهى تزول عن أماكنها وتسير حيثما كمر السحاب ،
 لأن الأجرام الكبار إذا تحركت فى سمت واحد لا تكاد تبين حركتها .

ونحو الآية قوله : « يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا . وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا » وقوله :
 « وَيَوْمَ تُسِيرُ الْجِبَالُ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً » وقوله : « وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ
 فَكَانَتْ سَرَابًا » وهذا يقع بعد النفخة الثانية عند حشر الخلق ، فيبدل الله الأرض
 غير الأرض ويغير هيئتها ويسير الجبال عن مقرها ليشاهدها أهل المحشر ، وهى وإن

دكت عند النفخة الأولى ، فتسييرها إنما يكون لدى النفخة الثانية كما نطق به قوله :
 « قُلْ يَسْفِهَهَا رَبِّي نَسْفًا » وقوله : « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ » .

ثم علل إمكان ذلك وسرعة حصوله بقوله :

(صنع الله الذى أتقن كل شيء) أى ذلك الصنع العظيم صنع الله الذى أحكم كل شيء وأودع فيه من الحكمة ما أودع .

ثم علل ما تقدم من النفخ فى الصور والقيام للحساب ومجازاة العباد على أعمالهم بقوله :

(إنه خير بما تعملون) أى إنه تعالى ذو علم وخبرة بما يفعل عباده من خير وشر ، وطاعة ومعصية ، وهو مجازيهم على ذلك أتم الجزاء .

ثم بين حال السعداء والأشقياء يومئذ فقال :

(من جاء بالحسنة فله خير منها) أى من آمن بالله وعمل صالحا فله على ذلك جزيل الثواب من عند ربه فى جنات النعيم ، ويؤمنه من الفرع الأكبر يوم القيامة كما جاء فى الآية : « لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَعُ الْأَكْبَرُ » وقال : « أَفَمَنْ يُتْلَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ » وقال : « وَهُمْ فِي الْفُرْقَاتِ آمِنُونَ » وقد صح تفسير الحسنه هنا بشهادة أن لا إله إلا الله على ما رواه ابن عباس وابن مسعود ومجاهد والحسن .

(ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار) أى ومن أشركوا بالله وعملوا السيئات يكبون على وجوههم فى جهنم ويطرحون فيها ، ونحو الآية قوله : « فَكُتِبَ بُرُؤُا بِمَا هُمْ وَالْقَاوُونَ » .

ثم ذكر ما يقال لهم حينئذ فقال :

(هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ؟) أى ويقال لهم : هل هذا إلا جزاء ما كنتم تعملون فى الدنيا مما يسخط ربكم ويفضبه منكم من شرك به ومعصية له .

إِنَّمَا أَمَرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ
وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ
فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣)

شرح المفردات

البلدة : هي مكة ، أتلو القرآن : أى أواظب على تلاوته ، من المنذرين : أى
الخوفاين قومهم من عذاب الله .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أحوال المبدأ والمعاد ، وفصل أحوال القيامة - أمر رسوله
أن يقول لهؤلاء المشركين هذه المقالة تنبيها لهم إلى أنه قد تم أمر الدعوة بما لا مزيد
عليه ولم يبق له بعد ذلك شأن سوى الاشتغال بعبادة الله والاستغراق فى مراقبته ،
غير مبال بهم ضلوا أو رشدوا ، صلحوا أو فسدوا ، إثارة لهمهمم بالطف وجه إلى
تدارك أحوالهم وتحصيل ما ينفعهم ، والتدبر فيما يقرع أسماعهم من باهر الآيات التى
تكفى فى إرشادهم وتشفى علالهم وأمراضهم .

الإيضاح

(إِنَّمَا أَمَرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا) أى قل لهم أيها الرسول
إِنَّمَا أَمَرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ مَكَّةِ الَّتِي حَرَّمَ عَلَى خَلْقِهِ أَنْ يَسْفِكُوا فِيهَا دِمَا حَرَامًا
أَوْ يَظْلَمُوا فِيهَا أَحَدًا ، وَخَصَّهَا بِالذِّكْرِ لِأَنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ لِلْعِبَادَةِ كَانَ فِيهَا - دُونَ الْأَوْتَانِ
الَّتِي تَعْبُدُونَهَا كَمَا قَالَ : « فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ
مِنْ خَوْفٍ » .

وفي هذا تأنيب لهم على ما يفعلون من أنواع الفجور وفطيم المنكرات ، فإنهم قد تركوا عبادة رب مكة ونصبوا الأوثان فيها وعكفوا على عبادتها .

(وله كل شيء) خلقا وملكا وتصرفا دون أن يشركه في ذلك أحد .

(وأمرت أن أكون من المسلمين) أى وأمرنى ربى أن أسلم وجهى له ، فأكون من الموحددين المخلصين للمتقين لأمره المحبتين له فى الطاعة .

ونحو الآية قوله : « قُلْ إِنِّى هَدَانِى رَبِّى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

(وأن أتلو القرآن) أثناء الليل وأطراف النهار ، لتتكشف لى أسرارهِ الخزونة فى تضاعيفه ، وأستطلع أدلة الكون المتفرقة فى آيه ، فأعرف حقائق الحياة ، وسر

الوجود ، ويفاض على من فيوضاته الإلهية ، وأسراره القدسية ماشاء الله أن يفيض . وقد روى أنه صلى الله عليه وسلم قام ليلة يصلى فقرأ قوله تعالى : « إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ » فما زال يكررها ويظهر له من أسرارها ما يظهر ، ويتجلى له من

مقاصدها ما تسمو به نفسه إلى الملا الأعلى حتى طلع الفجر .

ونحو الآية قوله : « ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ » .

(فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه) أى فمن اتبعنى واهتدى بهدى وأمن بى وبما جئت به فقد سلك سبيل الرشاد وأمن نعمة ربه فى الدنيا وعذابه فى الآخرة .

(ومن ضل فقل إنما أنا من النذرين) أى ومن جار عن قصد السبيل بتكذيبه بى وبما جئت به من عند الله ، فقل إنما أنا من النذرين فحسب ، وقد خرجت من

عهدة الإنذار ، وليس على من وبال ضلالكم من شيء ، فإن قبلتم واتبعتم عما يكرهه ربكم من الشرك ، فخطووا أنفسكم تصيبون ، وإن كذبتهم وأعرضتم عما أَدْعُوكم إليه

فعلى أنفسكم تجنون ، وقد بلغتكم ما أمرت بإبلاغه إياكم .

ونحو الآية قوله : « فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ » وقوله : « إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » .

ثم أمره بترغيب قومه وترهيبهم فقال :

(وقل الحمد لله) أى وقل الحمد لله على ما أفاض على من نعمائه التى من أجلها
نعمة النبوة المستتبعة لضروب من النعم الدينية والدنيوية ، ووفقى لتحمل أعبائها
وتبليغ أحكامها بالآيات البينة والبراهين الساطعة ، ووفقى لاتباع الحق الذى أتم
عنه عمون .

(سيركم آياته فتعرفونها) أى سيركم ربكم آيات عذابه وسخطه فتعرفون بها
حقيقة نصحى ويستبين لكم صدق ما دعوتكم إليه من الرشاد حين لا تجدى المعرفة ،
ولا تفيد التبصرة شيئاً .

ونحو الآية قوله : « سَتَرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ
أَنَّهُ الْحَقُّ » .

ثم ذيل هذا بتقرير ما قبله من الوعد والوعيد بقوله :

(وماربك بغافل عما تعملون) أى وما ربك بغافل عما يعمل هؤلاء المشركون
ولكنه مؤخر عذابهم إلى أجل هم بالغوه ، لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون ،
فلا يحزنك تكذيبهم فإني لهم بالمرصاد ، وأيقن بأنى ناصرك وخاذل عدوك ، ومذيقهم
الذل والهوان .

روى أن عمر بن عبد العزيز قال : فلو كان الله مَغْفِلاً شيئاً لأغفل ما تُغْفَى الرياح
من أثر قديم ابن آدم وكان الإمام أحمد كثيراً ما ينشد هذين البيتين :

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل على رقيب

ولا تحبب الله يغفل ساعة ولا أن ما يخفى عليه يغيب

والحمد لله وصلاته على النبي الأسمى وعلى آله وصحبه أجمعين .

خلاصة ما حوته هذه السورة الكريمة

من حكم وأحكام وقصص

- (١) وصف القرآن الكريم بأنه هدى ورحمة للمؤمنين .
- (٢) قصص موسى عليه السلام .
- (٣) قصص سليمان عليه السلام .
- (٤) قصص ثمود وقصص قوم لوط .
- (٥) النعى على المشركين فى عبادة الأصنام والأوثان وإقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى .
- (٦) إنكار المشركين للبعث والنشور وقولهم : إن هذا إلا أساطير الأولين .
- (٧) علم الله بما فى الصدور .
- (٨) حكم القرآن على ما اختلف فيه بنو إسرائيل .
- (٩) قطع الأطماع فى إيمان المشركين وتشبيههم بالعمى الصم .
- (١٠) أشراط الساعة وخروج الدابة من الأرض وحشر فوج من كل أمة وتسيير الجبال .
- (١١) الجزاء على العمل خيرا كان أو شرا .
- (١٢) أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين : إنه إنما أمر بعبادة رب مكة ، لا بعبادة الأصنام والأوثان .
- (١٣) أمره بحمد الله والثناء عليه وطلبه تلاوة القرآن .
- (١٤) إنه سبحانه سيرى المشركين آياته فيعرفونها حق المعرفة حين لا يفيدهم ذلك شيئا .